الطـريـق

١

الطـــريـق

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب ١٩٨٨

دار الشـروقـ

- ١ -

اغرورقت عيناه. رغم ضبطه لمشاعره وكراهيته أن يبكى أمام هؤلاء الرجال أغرورقت عيناه. وببصر مائع نظر إلى الجثمان وهو يحمل من النعش إلى فوهة القبر. بدا فى كفنه نحيلا كأن لا وزن له، شد ما هزلت يا أماه، وتوارت عن ناظرية تماما فلم يعد يرى إلا ظلمة. وسطعته رائحة التراب، ومن حوله احتشد الرجال ففاحت أنفاس كريهة وعرق، وفى الحوش خارج الحجرة ارتفع لغط النساء، وانفعل برائحة التراب حتى عافت نفسه كل شىء. وهم بالانحناء فوق القبر ولكن يدا شدت على ذراعه وصوتا قال:

ـ تذكر بك..

تقزز من ملمسه ولعنه من الأعماق. هذا خنزير كسائر من حوله من الخنازير. ولكن لحظة الوداع استردته بوخرة كالندم، وقال إن معاشرة ربع قرن من الزمان لا تعنى فى هذه اللحظة شيئا ولا تساوى شيئا، وتردد من بعيد صوت كالعواء ثم دخل الحجرة طابور من العميان فطوقوا القبر فى نصف دائرة ثم

جلسوا القرفصاء. وشعر بأعين كثيرة تحدق فيه أو تسترق إليه النظرات، وإنه يعرف ما تعنيه هذه النظرات. وشد قامته الرشيقة فى عناد. يقولون لم يقف هكذا غريبا فى منظره وملبسه كأنه ليس واحدا منا. لم نحته أمه عن بيئته ثم تركته وحيدا؟ إنهم لا يعزونك ولكنهم يدارون شماتتهم بك. ومذاق الحياة أمسى كالتراب. وبرز من الفوهة الترابى ومساعده فوقفا فوق سطح الأرض مرة أخرى وأقبلا يسدان القبر ثم يسويان الأرض فى نشاط وحيوية. ونادى السقاء على الماء، ورتل العميان، ثم ردد رئيسهم التلقين. وتساءل عما ستجيب به أمه. وقال إنها ستكون وحيدة حقا. وماذا يقول فى ذلك الخنازير؟ ها هو الخشوع يغشى حباههم كسحابة صيف. وإدركه الضجر فتاق إلى الوحدة فى بيته وألحت عليه رغبة فى أن يعيد النظر فى كل شىء. ستحدق الأسئلة المحرجة بأمه فى ظلام القبر. ولن يساعدها أحد من هؤلاء الشياطين، ولكن يومكم سيجئ. وانخفضت الأصوات فى نغمة حزينة موحية بالختام، ووقف الطابور فى حال انتظار وتقدم الترابى منه خطوات. عند ذاك قال الواقف إلى يمينه:

ـ دعه لى فلا تحاسبه إنى أدرى بهؤلاء الناس..

وثار حنقه من جديد ولكنه أدرك أن الطقوس قد انتهت وتضاعف شعوره بالوحدة. وألقى على المقبرة نظرة شاملة فارتاح لأناقتها وتراءى له بين قضبان النافذة اللبلاب والصبار والريحان التى تزركش جدار الفناء والإركان. كانت رحمها الله تحب الرفاهية فأعدتها للدارين ولكن لم يبق لها إلا المقبرة. وتحرك

الناس فى بطء نحو الحوش فمضى إلى الباب الخارجى ليودع المشيعين. وصافحته النساء أولا، ورغم ثياب الحداد والبكاء واللطم لم تختف من أعينهن نظرات افجور ولا زايلت وجوههن القحة وفلتات التهتك. وتتابع الرجال، شد حيلك وسعيكم مشكور، من تاجر مخدرات إلى بلطجى ومن برمجى إلى قواد. وأتبعهم نظرة باردة وهو لا يشك فى أنهم يبادلونه نفس العاطفة. ومع ذلك لم ينس أنه مدين لهم وهو ما يؤكد سخطه دواما. وقال إنه قد انتهى منهم إلى الأبد ولكنه بلا نصير. وفى طريقه إلى مسكنه بشارع النبى دانيال لفحه هواء منعش معبق بأنفاس الخريف وبدت المساء غامضة فى مولد المغيب. مسكن النبى دانيال الذى شهد فترةبهيجة ناعمة من حياته، ولا أثر للراحلة فى مسكنه إلا صوان كبير ونارجيلة مهملة تحت فراشها المهجور. وجلس فى شرفة تطل على ملتقى النبى دانيال بسعد زغلول يدخن سيجارة فجذب بصره استعداد قائم فى شقة على الجانب الآخر للطريق تسكنها أسرة أفرنجية، فثمة بوفيه رصت عليه القوارير وأوعية الثلج، وفى نهاية البهو تعانق رجل وامرأة بحرارة لا تناسب الوقت المبكر. وقال إنه ابتداء من اليوم سيعرف الحياة على حقيقتها. إنه وحيد بلا مال ولا عمل ولا أهل ولم يبق إلا أمل غريب كالحلم، إنه مطالب منذ اليوم بتأمين حياته، وهى مسئولية لم يتحملها منقبل. إذ نهضت بها أمه وحدها، ففرغ هو طوال الوقت لإمتاع شبابه اليافع. وأمس فقط لم يكن يفكر فى الموت بحال. فى مثل هذه الساعة أو قبل ذلك بقليل جاء الخنطور بأمه فغادرته معتمدة على ذراعه وسارت فى خطوات متثاقلة متخاذلة

من الإعياء والضعف، وقد وهنت وهزلت وكبرت ثلاثين عاما فوق عمرها الحقيقى الذى لم يجاوز الخمسين. هكذا تبدت بسيمة عمران فى آخر صورة لها، وهى راجعة إلى بيت ابنها، أو البيت الذى أعدته لابنها، بعد أن قضت فى السجن خمس سنوات. وتأوهت قائلة:

ـ أمك انتهت يا صابر:

فحملها بين ذراعيه دون مشقة وهو يقول:

ـ كلام فارغ، ما زلت فى عز الشباب..

واستقلت على فراشها قبل أن تنزع قطعة من ملابسها، ثم أمالت وجهها نحو مرآة فى الصوات وقالت بحسرة وهى تنهج:

ـ أمك انتهت يا صابر، من يصدق أن هذا الوجه هو وجه بسيمة عمران..!

الآن. فى استدارة البدر كان. ووجنة موردة كالتفاح، وأما الجسد الجسيم الهائل فلم يكن ليهتز هزة واحدة عند القهقهة، وقهقهتها كانت تهتزلها المجالس.

ـ لعنة الله على المرض..

فقالت وهى تجفف وجهها بكمها رغم لطافة الجو:

ـ ليس المرض وحده ولكنه السجن، والمرض جاء من السجن، أمك لم تخلق لذلك، وقالوا الكبد والضغط والقلب. الله يمرض عيشتهم، ترى ألا يمكن أن أرجع إلى ما كنت؟

ـ وأحسن ، عندك الراحة والطب . .

ـ والمال؟!

وامتعض عند ذلك فلم ينبس ، فسألته :

ـ ماذا تبقى لك منه؟

لم يخل من حذر وهو يجيب :

ـ شىء لا يذكر . .

ـ كنت حكيمة عندما كتبت بيت رأس التين باسمك وإلا لصادره فيما صادروا من مالى .

ـ ولكنى بعته عندما نفدت نقودى كما قلت لك وقتها . .

فتأوهت وهى تضع راحتها على يافوخها :

ـ آه يا رأسى ، ليتك أبقيت عليه ، كان فى يدك مال كثير ولكننى أنا التى عودتك على الحياة الحلوة ، أردت أن تعيش مثل الأكابر ، وأردت أن أترك لك ثروة لا يغرقها البحر ، ثم . .

ـ ثم ضاع كل شىء فى خبطة واحدة . .

ـ نعم ، منهم لله ، انتقام وضيع من رجل وضيع ، رجل طالما تنعم بنقودى ، ثم حقد على بسبب بنت لا تساوى ثلاثة ملاليم فتذكر فجأة الواجب والقانون والأعراض وأوقع بى ابن الزانية ، لذلك بصقت على وجهه فى المحكمة . .

وطلبت سيجارة بإشارة من يدها فأشعل لها سيجارة وهو يقول :

ـ الأفضل ألا تدخننى الآن، هل كنت تدخنين هناك؟

ـ سجائر وحشيش وأفيون، ولكنى كنت قلقة عليك دائما . .

ودخنت رغم تهافتها، وجففت وجهها وعنقها بيدها الأخرى:

ـ وماذا عن مستقبلك يا بنى؟

ـ كيف لى أن أدرى؟ ليس أمامى إلا أن أعمل برمجيا أو بلطجيا أو قوادا . . !

ـ أنت!

ـ حق أنك علمتنى حياة أجمل ولكنى أخشى ألا يكون ذلك فى صالحى . .

ـ أنت لم تخلق للسجون!

ـ وماذا فى الدنيا غير هذه الأعمال؟

ثم مستدركا فى حدة:

ـ كم شمت بى الأعداء فى غيابك!

ـ صابر . . تجنب الغضب . إنه الغضب الذى أدخلنى السجن فما كان أسهل على أن أرضى الوغد الذى غدر بى . .

ـ فى كل مكان أصادف من يستحق السجن . .

ـ دعهم يقولوا ما يشاءون ولكن لا تستعمل قبضتك . .

فكور قبضته قائلا :

ـ لولا هذه القبضة لعرضوا بى فى كلمكان، إن أحدا لم يجرؤ على ذكرك بسوء أمامى وأنت فى السجن . .

فنفخت الدخان فى غضب وقالت :

ـ أمك أشرف من أمهاتهم، إننى أعنى ما أقول، ألايعلمون أنه لولا أمهاتهم لبارت تجارتى . . !

ابتسم صابر رغم الكآبة الشاملة فعادت تقول :

ـ إنهم مهرة فى خداع الناس بمظاهرهم، الوجيه فلان . . المدير فلان . . الخواجا علان . . سيارات وملابس وسيجار . . كلمات حلوة . . روائح زكية . . لكننى أعرفهم على حقيقتهم، أعرفهم فى حجرات النوم وهم مجردون من كل شىء إلا العيوب والفضائح، وعندى حكايات ونوادر لا تنفد، الأطفال الخبثاء القذرون الأشقياء، وقبل المحاكمة اتل بى كثيرون منهم ورجونى بإلحاح ألا أذكر اسم واحد منهم ووعدونى بالبراءة، مثل هؤلاء لا يجوز أن يعيروك بأمك فأمك أشرف من أمهاتهم وزوجاتهم وبناتهم، وصدقنى أنه لولا هؤلاء لبارت تجارتى . .

عاوده الابتسام فتأوهت قائلة :

ـ أين أيام الضحك أين؟ أمك أحبتك بكل قواها، ولك أعددت لهذا المسكن الجميل بعيدا عن جوى كله، وأرسلت مالى يجرى تحت قدميك فإذا جاءتك منى إساءة لا حيلة لى فيها فلا ذنب لى، وليس فى الرجال من له نصف جمالك ورشاقتك، غير

أنه يجب أن تتجنب الغضب وأن تتعظ بما جرى لى . .

رنا إلى تعاستها بحزن ثم تمتم :

ـ سيعود كل شىء إلى أصله . .

ـ أصله؟! أنا انتهيت، بسيمة أيام زمان لن تعود، ولا سبيل إلى العمل من جديد، لا الصحة تسمح بذلك ولا البوليس . .

ونظر إلى الأرض قائلا :

ـ لم يبقمن ثمن البيت إلا القليل . .

ـ وما العمل؟ يجب أن تعيش كما عودتك!

ـ لكنى لم أعرفك يائسة أبدا .

ـ إلا هذه المرة . .

ـ إذن على أن أعمل أو أن أقتل . .

أطفأت السيجارة ثم أغمضت عينيها إعياء أو طلبا للتركيز فقال صابر :

ـ لابد من مخرج .

ـ نعم طالما فكرت فى ذلك وأنا فى السجن . .

لأول مرة فى حياته تزعزعت ثقته فى أمه . واستطردت المرأة :

ـ أجل فكرت طويلا، ثم أقنعت نفسى بأنه لا يصح أن أصر على الاحتفاظ بك ما دام ذلك فى غير مصلحتك . .

حدجها بنظرة متسائلة من عينيه السوداوين فتمتمت بنبرة اعتراف منهزمة :

ـ أنت لا تفهم شيئا ولك حق، الواقع أن الحكومة صادرتك ساعة صادرت أموالى، لم يعد لى الحق فى امتلاكك أنت أيضا، أدركت ذلك يوم صدور الحكم . .

وصمتت من شدة معاناة اليأس ثم واصلت :

ـ معنى هذا أنه يجب أن تهجرنى . .

تساءل بامتعاض :

ـ إلى أين؟

أجابت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ إلى أبيك . . !

رفع حاجبيه المقرونين فى ذهول هاتفا :

ـ أبى؟!

فهزت رأسها علامة الإيجاب فقال :

ـ لكنه ميت، أنت قلت إنه مات قبل مولدى . .

ـ قلت ذلكولكنه ليس من الحقيقة فى شىء . .

ـ أبى حى؟ شىء مذهل حقا، أبى حى!

وجعلت ترمقه بنظرة استياء ومضى هو يقول :

ـ أبى حى! لكن لم أخفيت عنى ذلك؟

ـ آه جاء دور الحساب . .

ـ أبدا، ولكن ألا يحق لى أن أسأل؛

ـ أى أب فى الدنيا كان يمكن أن يهيئ لك من أسباب السعادة بعض ما هيأت لك . .

ـ لا أنكر شيئا من هذا أبدا . .

ـ إذن فلا تحاسبنى واستعد للبحث عنه . .

ـ البحث؟!

ـ نم إنى أتحدث عن رجل كنت امرأة له منذ ثلاثين عاما ثم لم أعد أدرى عنه شيئا . .

قطب فيحيرة وتهاوى جذعه الذى أطلقه الانفعال:

ـ أمى ما معنى هذا كله؟

ـ معناه أنى أوجهك إلى المخرج الوحيد من ورطتك . .

ـ لعله قد مات . .

ـ ولعله حى . .

ـ وهل أضيع عمرى فى البحث عن شىء قبل التأكد من وجوده؟

ـ ولكنك لن تتأكد من وجوده إلا بالبحث، وهو خير على أى حال من بقائك بلا مال ولا أمل . .

ـ موقف غريب لن أحسد عليه .

ـ بديله الوحيد أنتعمل برمجيا أو بلطجيا أو قوادا أو قاتلا ، فلا بد مما ليس منه بد . .

ـ وكيف يمكن أن أعثر عليه؟

تنهدت من الأعماق وهى تزداد تعاسة بالعودة إلى الماضى :

ـ أما اسمه فهو المسجل فى شهادة ميلادك ، سيد سيد الرحيمى ، وقد أحبنى منذ ثلاثين عاما وكان ذلك فى القاهرة . .

ـ القاهرة! ليس أيضا فى الإسكندرية!

ـ إنى أعلم أن مشكلتك الحقيقية ستكون فى العثور عليه . .

ـ لم لم يبحث عنى هو؟

ـ إنه لم يعلم بك . .

قطب صابر واستقرت فى عينيه نظرة احتجاج مكفهرة فقالت :

ـ انتظر ، لا تنظر إلى هكذا ، واسمع بقية الحديث عنه ، إنه سيدووجيه بكل معنى الكلمة ، لا حد لثروته ولا نفوذه ، لم يكن فى ذلك الوقت إلا طالبا بالجامعة ومع ذلك كانت الدنيا تهتز لدى محضره .

تابعها بنظرة تجلى فيها الاهتمام المشوب بالفتور فقالت :

ـ أحبنى ، وكنت بنتا جميلة ضائعة ، وحفظنى سرا فى قفص من ذهب . .

ـ تزوجك . .

ـ نعم، وما زلت أحتفظ بشهادة الزواج . .

ـ ثم طلقك؟

تنهدت قائلة :

ـ بل هربت!

ـ هربت؟!

ـ هربت بعد معاشرة أعوام وأنا حبلى، هربت مع رجل من أعماق الطين . .

بذهول وهو يهز رأسه :

ـ شيء لا يصدق . .

ـ وبعد قليل ستتهمنى بأننى المسئولة عن ورطتك . .

ـ لن أتهمك بشيء فحسبنا ما بنا، ولكن ألم يبحث عنك؟

ـ لا أدرى ، هربت إلى الإسكندرية ثم لم أسمع عنه شيئا، وكثيرا ما توقعت أن ألقاه يوما فى أحد بيوتى ولكن عينى لم تقع عليه . .

ضحك فى فتور ثم قال :

ـ وبعد ثلاثين عاما تدفعيننى للبحث عنه . .

ـ أليس يدفعنا إلى ما هو أغرب من ذلك، وستكون معك

شهادة الزواج وستكون معك أيضا صورة الزفاف، وسوف ترى بعينيك أنك صورة منه . .

ـ عجيب أن تحتفظى بالشهادة والصورة . .

ـ كنت أفكر فى مستقبلك ، وكنت فتاة فقيرة تعيش فى كنف بلطجى، ولما أتانى النجاح صدقت نيتى على الاستئثار بك . .

ـ ومع ذلك لم تتخلصى من بقايا الذكريات . .

جففت وجهها وعنقها بحركة حادة بعض الشىء وقالت :

ـ هممت بذلك مرات ثم عدلت، كأن ركنا فى كان يتنبأ بما سيقع . .

راح يذرع الحجرة فى حيرة ثم وقف أمام السرير وهو يسأل :

ـ وإذا بعد الجهد والتعب أنكرنى؟

ـ من يرى بهاء صورتك وينكرك؟ !

عاد إلى الجلوس وهو يقول :

ـ القاهرة مدينة كبيرة وأنا لم أزرها من قبل . .

ـ من قال إنه اليوم فى القاهرة؟ لم لا يكون فى الإسكندرية، أو فى أسيوط أو دمنهور، الحق أنه لم يطلعنى على حال من أحواله أين هو اليوم، ماذا يعمل، أهو أعزب أم متزوج؟ الله وحده يعلم . .

فلوح بيده كالغاضب وقال :

ـ وكيف يراد منى العثور عليه . .

ـ لذلك يجب ألا تتوانى عن البحث . .

وتفكر قليلا ثم سأل :

ـ وهل يستحق يا ترى كل هذا التعب؟

ـ بلا أدنى شك يا بنى ، ستجد فى كنفه الاحترام والكرامة ، وسيحررك من ذل الحاجة إلى أى مخلوق بما سيهيئ لك من عمل غير البلطجة أو الجريمة ، فتظفر آخر الأمر بالسلام . .

ـ وإن وجدته فقيرا ! . . ألم تكونى أنت غنية لا يحيط بثروتك حصر ؟

ـ أوكد لك أن المال ليس إلا حسنة من حسناته ، وقد كنت غنية حقا ولكنى لم أهيئ لك كرامة ولا عمل ولا سلاما ، وكنت تسير ملوحا بلكمتك لتخرس لألسنة المتوثبة للنيل منك ومن أمك . .

عاد إلى التفكير فخيل إليه أنه يحلم ، ثم سألها :

ـ هل تؤمنين حقا بأننى سأعثر عليه؟

ـ شىء يحدثنى بأنه حى وأنك إذا لم تيأس أو تتوان فسوف تعثر عليه . .

هز رأسه وهو بين الحيرة واليأس وتمتم :

ـ هل حقا أمضى للبحث عنه؟ وإذا علم أعدائى بهذه الحكاية أفلن يجعلوا منى نادرة جنونية؟ !

ـ وماذا يقولون إذا وجدوك آخر الأمر قواد؟ الحق أنه لا خيرة لك فيما أنت ذاهب إليه . .

أغمضت عينيها بعد ذلك وغمغمت «إنى تعبة جدا» فرجاها أن تنام على أن يستأنفا الحديث غدا . وخلع حذاءها ثم غطاها ولكنها أزاحت الغطاء عن صدرها بحركة عصبية فلم يعده ، ومالبث شخيرها أن تردد . . واستيقظ حوالى التاسعة من صباح اليوم التالى بعد ليلة سهاد ممزقة بالفكر . وذهب إلى حجرتها ليوقظها فوجدها ميتة . ترى هل ماتت وهى نائمة أو أنها نادته آخر الليل فلم يسمع؟ على أى حال وجدها ميتة وهى لم تزل بالملابس التى غادرت بها السجن . وها هو الآن يتفحص بعناية ودهشة صورة الزفاف . الصورة التى جمعت بين والديه منذ ثلاثين عاما . وها هو يركز بصره على صورة أبيه ، على وجهه بالأخص . شاب جميل حقا ، مفعم بالشباب والحيوية ، ونظرته تفيض بالاعتداد بالنفس ، ووجهه المائل للبياض ، المستطيل الممتلئ ذو الجبهة العالية ، والطربوش المائل إلى اليمين ، لا يمكن أن ينسى . ولم تكذب أمه حين قالت إنه صورة منه ولكنه كما يكون القمر على الورق صورة من القمر فى كبد السماء .

وفى شقة الجيران أخذ المدعوون يتوافدون وأنغام الموسيقى تترامى ، هذا صوت القرآن يتلى فى غرفة المرحومة . والآن أين هى الحقيقة وأين هو الحلم؟ أمك التى ما تزال نبرتها تتردد فى أذنك قد ماتت ، وأبوك الميت يبعث فى الحياة . وأنت المفلس المطارد بماض ملوث بالدعارة والجريمة تتطلع بمعجزة إلى الكرامة والحرية والسلام .

- ٢ -

ليبق الأمر سرا، وإذا خاب مسعاه فليستعن بمعارفه، وليبدأ بالإسكندرية فهذا طبيعى جدا، وإن يكن من المستبعد أن يقيم بها شخص كأبيه ولا تدرى به أمه. واتخذ من دليل التليفون دليله، حرف السين، سيد، سيد، سيد . . حتى استقرت عيناه على سيد سيدالرحيمى. آه لو يدلله الحظ ويعفيه من متاعب لا يدرى مداها أحد. سيبد سيد الرحيمى صاحب مكتبة المنشية. أين هذامن جاه أبيه؟ والمنشية كانت معبدا لأمه طيلة ربع قرن من الزمان، ولكن لعله يجد فى الاسم مفتاحا للغز. ووجد صاحب المكتبة فى الخمسين من عمره، وذا سحنة لا تمت بسبب إلى صورة أبيه، وأخبره أنه يبحث عن سمى له وأطلعه على صورته مخفيا صورة أمه، وقال الرجل:

ـ لا أعرف صاحب هذه الصورة.

ولما أوضح له أنها صورة التقطت منذ ثلاثين عاما قال:

ـ ولا أذكر أنى رأيته . .

ـ ألا يمكن أن يكون قريبا من بعيد؟

ـ نحن فى الأصل من الإسكندرية، وجميع أهلى يقيمون هنا عدابعض أقارب فى الريف من ناحية الأم، ولكن ما سبب بحثك عنه؟

وارتبك لحظة ولكن سرعان ما أجاب :

ـ إنه صديق قديم للمرحوم أبى ، أليس للرحيمى فروع فى بلاد أخرى؟

وتفحصه بنظرة لم تخل من ريته وقال :

ـ الرحيمى هو جدى ، ولا ينتسب إليه من أسرتنا إلا أنا وأختى وليس لنا فروع من ناحيته خارج الإسكندرية .

ولا سبيل إلى الصبر أو الطمأنينة لمن لم يعد يملك سوى مائتين من الجنيهات . وهى تتناقص بمرور الساعات ولا أمل بعدها فى حياة كريمة . ومرضت عيناه من التفحص المركز للوجوه وأعياه القلق . ولجأ إلى محام من معارفه يشاوره فقال له :

ـ لعل له رقم تليفون سرى . .

وتطوع لمعاونته فى الكشف عنه دون نتيجة ، ثم قال له :

ـ اسأل مشايخ الحارات . .

فقال صابر بإنكار :

ـ إنه وجيه بكل معنى الكلمة . .

ـ إن ثلاثين عاما خليقة بأن تفعل الأعاجيب ، بل فى نيتى أن أكلف صديقا من ضباط البوليس ليتحرى عنه فى السجون!

ـ السجون؟!

ـ لم لا؟ السجن كالجامع مفتوح للجميع ، وأحيانا يدخله

إنسان لنبل فى أخلاقه لا لاعوجاج .

وضحك المحامى ضحكة مقتضبة ثم قال :

ـ ولكن لنبدأ بالشهر العقارى فلعله من الأعيان المتخفين .

ـ ولم يكن فى كشف السجون اسمه ولا فى سجلات الملاك فلم يجد مفرا من اللجوء إلى مشايخ الحارات . واستبدل إلى حين اقتراحا للمحامى بالإعلان فى الصحف إذ أن ذلك يذيع مشكلته العجيبة على الملأ ويمكن أعداءه الكثيرين فى الإسكندرية من العبث به فأجل تنفيذ الفكرة إلى ما بعد مغادرة المدينة . ودار على مشايخ الحارات من العطارين إلى كرموس ، ومن رأس التين إلى محرم بك . وكلما ذكر اسم سيد سيد الرحيمى سئل :

ـ عمله؟!

ـ لا أدرى عنه شيئا إلا أنه من الوجهاء وهذه صورته منذ ثلاثين عاما .

ـ ولم تبحث عنه؟

ـ إنه صديق قديم لأبى وقد كلفت بالبحث عنه .

وتحدق فيه الأعين باستغراب :

ـ وهل أنت متأكد من أنه حى؟

ـ لست متأكدا من شىء .

ـ وكيف عرفت أنه فى الإسكندرية؟

ـ مجرد أمل ليس إليا .

ثم يجيئه الجواب النهائى كجدار السجن :

ـ غير معروف عندنا .

ولمترتح عيناه لحظة واحدة من التهام الوجوه، ولم يشعر فى دوامة الاستطلاع بخطياالخريف حتى أيقظه مطر مباعت عند لسان الكورنيش الموغل فى البحر فانسحب مسرعا إلى الميرامار، ورفع عينيه إلى سماء أظلت جو الظهيرة بقطع من الليل . وسمع صوتا يقول مرحبا :

ـ تعال .

صافحها وجلس .

ـ لم أتمكن من تعزيتك ولكنى انتظرت أن تزور «الكباريه» .

ـ ألست فى حداد؟

ـ الكنار مكان مناسب للمحزونين، والجميع يتساءلون أين أنت؟

وتوقف المطر فوقف من فوره معتذر بمشاغل فقالت بدورها هامسة :

ـ خبرنى هل أنت فى ضائقة مالية؟

آه هل بدءوا يتقولون؟ وقالت بإغراء :

ـ مثلك لن يعز عليه المال إذا أراده!

فصافحها مرة أخرى ببرود ثم ذهب. مثلك لن يعز عليه المال.. أجل فأذعن لنداء القوادة. ذلك ما يتمناه أعداؤه ولكن دونه الموت. وتساءل ماذا بقى فى الإسكندرية؟

وبسط راحتيه أمام قارئ الكف ولكنه لم يقل جديدا. وزار العارف بالله سيدى الشيخ زندى بعطفه الفراشة. تربع بين يديه فى حجرة تحتانية مغلقة الشيش دواما فهى تعيش فيمغيب متصل وتتلوى فى جوها سحائب البخور. وشم الشيخ منديله ثم أحنى رأسه مستغربا ثم قال:

- من جد وصل..

وترامى إليه هدير الموج من الأنفوشى فقال بأمل «بداية حسنة» وقال الشيخ:

- وتعب كليالى الشتاء.

اليوم بسنة وكم هو باهظ التكاليف.

- وستنال مطلوبك.

وفى جزع سأله:

- ما مطلوبى؟

- إنه ينتظرك بفارغ الصبر.

- هل يدرى بى؟

- إنه ينتظرك.

لعل أمه لم تقل له كل شىء .

ـ إذن هو حى .

ـ الحمد لله .

ـ وأين أجده فهذا ما يعنينى حقا؟

ـ الصبر .

ـ لا يمكن الصبر إلى ما لا نهاية .

ـ أنت فى البدء .

ـ فى الإسكندرية؟

أغمض الرجل جفنيه ثم تمتم :

ـ أبشرك بالصبر .

وقطب مغتاظا ثم قال :

ـ لم تقل شيئا .

فقال اليخ محولا عنه رأسه :

ـ قلت كل شىء .

وخرج إلى جو عاصف تركض فيه السحب مثقلة بالظلمات . وقال دجالون وعاهرات والنقود تبعثر بلا حساب . وعزم على بيع أثاث شقته تمهيدا للسفر إلى القاهرة .

وكان قد باع التحف الرشيقة فى محنته ليواجه بثمنها نفقات

معيشته الخيالية. وكره دعوة السماسرة إلى شقته فقصد المعلمة نبوية صديقة أمه الحميمة والشخصية الوحيدة التى لم يكرهها فى ذلك الوسط. وقالت وهى تقدم خرطوم النارجيلة:

ـ سأشترى أثاثك على العين والرأس ولكن لماذا تهجر بلدك؟

ـ سأشق لى طريقا فى القاهرة بعيدا عن الخلق!

ـ الله يرحم أمك، أحبتك ودللتك فسدت فى وجهك سبل الرزق!

وأدرك ما تعنيه فقال:

ـ لم أعد أصلح لهذه المهن!

ـ وماذا تفعل فى القاهرة؟

ـ صديق هناك وعدنى خيرا.

قالت باسمة عن ثغر ذهبى:

ـ أعمالنا لا تشين إلا المغرورين، طاوعنى!

فبصق فى موقد كبير بنفث بخور الهند.

وتعلق بصره بالإسكندرية والقطار يرج الأرض مبتعدا. رآها مدينة الأطياف مغروسة فى حلم الخريف تحت مظلة هائلة من السحب، وهواء بارد معبق بمطلع نوفمبر يجوب شوارعها الأنيقة شبه الخالية. وودعها هى وأمه وذكريات ربع قرن من الزمان بزفرة طويلة ساخنة. وكيف يكون الحال لو أن من تبحث عنه قد خلفته

وأنت لا تدرى فيركن من الإسكندرية لم يبلغه مسعاك؟ ومن ضمن لك أن يكون حظك فى الطاهرة خيرا منه فى الإسكندرية؟ وكم فى البحر من أمواج وكم فى السماء من نجوم. وعجيب أن يكون بعيدا هذا البعد كله من تحمل روحه وجسده بين جنبيك. وما أبعدك عنه إلا شهوة عمياء انتزعتك من أحضانه لتلدك فى ماخور. وكان يسألها عن أبيه فتجيبه «كان موظفا محترما ورجلا طيبا ولكنه مات فى ريعان الشباب»، وأهله أليس له أهل؟ فتجيبه «لا أعرف له أهلا!». لذلك ظن طويلا أنه ابن رجل من البلطجية وأنه ابن زنا. وأنت اليوم وحيد بلا أهل ولا أصدقاء كأنك جنس غريب. وهاله الزحام فى محطة مصر فألح عليه شعوره بالوحدة.

ونازعته نفسه إلى العودة فى أول قطار ولكنه أودع حقيبته الأمانات ثم خرج إلى الميدان والشمس تميل ميلة العصر. ودار رأسه مع السيارات والبصات ولعابرين. وترامى الميدان فى غاية من الاتساع وبلا شخصية، وتقابل فوق أديمه متناقضات من أشعة حاميةوهواء لطيف، وشوارع مزدهرة وأخرى خربة. وقضى ساعة وهو يبحث عن فندق رخيص فى الميدان وما حوله حتى وجد نفسه فى شارع الفسقية ذى البواكى أمام فندق «القاهرة». وقف على الطوار المسقوف المقابل للفندق على كثب من شحاذ مستلق لصق الجدار يتغنى بمديح نبوى. وانعكس عليه من الشارع طابع عمل ودمامة وضجر لكثرة الدكاكين على الصفين وعربات النقل وأكوام البضائع ولكنه أمل أن يجده أرخص فندق فى الناحية. وهو مبنى قديم، ترابى الجدران، مكون من أربعة أدوار وعليه فوق السطح، وذو باب مرتفع مقوس الرأس كوجه باك،

يفتح على مدخل مستطيل ينتهى إلى السلم ويتوسطه مكتب جلس إليه رجل إلى جانبيه امرأة. الرجل طان فى السن أما المرأة. . رباه إنها فتاة فى عز الشباب تشد عينيه بقوة ليست بلا سبب. إنها توقظ مشاعر نائمة وتنبه ذكريات مدفونه فى الضباب. العطفة المبلطة الصاعدة من الأنفوشى المشبعة بهواء البحر ورطوبته المالحة وانفعالات الجنون الملفعة بالظلام. وسرعان ما توثقت علاقات خفية بينه وبين الفندق كأنما جاءه على ميعاد ووجد نفسه يعبر الطريق نحوه مدفوعا برغبة فى الاستطلاع والكشف وإن يكن غير مصدق لظنونه تماما، وصوت الشحاذ يتردد عاليا فى نبرة أعجبته:

طه زينة مديحى صاحب الوجه المليحى

النصارى واليهود
أسلموا على يديه

السمرة الرائقة النقية، والعينان اللوزيتان الدعجاوان، وبريقهما المضىء المفهم بالنبض والاقتحام. أين من هذه القطة المهزولة ذات الثوب الباهت الواحد وأظافرها الجارحة؟ إنها تذكرة بها بعنف تاركة له تخيل ما صنع الزمن فى عشرة سنوات أو يزيد. والاسم القديم ضائع كأبيه، ولكن رائحة البحر تملأ خياشيمه وها هو يرتجف لتذكر الليل البهيم، ورغم ذلك كله فقد ل أبعد ما يكون عن اليقين. وبنت العطفة ذكرى عابرة لا قيمة لها ولكنها تبعث الآن فى صورة فريدة ذات سطوة خطيرة الشأن كبعث أبيه من الموت الذى جاء به من البحر إلى هذه المدينة المثيرة. استقبلت

الفتاة القادم بنظرة قطيرة ولنها متغلغلة ثم أدارت وجهها نحو استراحة الفندق إلى يمينها. ووقف صابر أمام المكتب والعجوز عاكف على دفتر يطالعه من خلال عدسة مكبرة يمسك بمقبضها المعدنى الصغير بيدمرتعشة.

ولم ينتبه العجوز إلى القادم لشيخوخة حواسه فيما بدا فأدام الشاب النظر إلى عارض الوجه الذى شغله، مكتشفا آيات تؤكد ظنونه وآيات تبددها، ثم تحول الوجه إليه بنظرة نافذة لا نتهازيته فرتت على ساعد الرجل لتنبهه، وعند ذلك بادره صابر قائلا:

ـ مساء الخير يا والدى!

رفع الرجل إليه وجهه ويده لا تكف عن الارتعاش. وهو وجه من الصعب التنبؤ عن صورته الأصلية إذا اختفى أديمه تحت قناع من الأخاديد والتجاعيد، وبرز أنفه مقوسا حادا مجدورا، واحتارت فى عينيه الناضبتين نظرة باهتة ممصوصة كأنما م تعد تعنى برؤية العالم، وقال صابر:

ـ إنى أسأل عن سعر الحجرة..

ـ ريال فى الليلة..

ـ ولمن يقيم أكثر من أسبوعين؟

ـ الريال عملة لا قيمة لها اليوم..

ـ قد أقيم شهرا أو أكثر تبعا لمشيئة الله.

فأمسك الرجل عن الكلام إعراضا عن المساومة وهنا رأى

صابر طربوشه الطويل الغامق لأول مرة، وتمتم:

ـ كما تشاء.

وراح يملى عليه الاسم والمكان الذى جاء نه ولما سئل عن عمله أجاب:

ـ من الأعيان!

وقدم له بطاقته الشخصية. وجعل يسترق النظر إلى الفتاة طوال انشغال العجوز بالبطاقة.

والتقت عيناهما مرة ولكنه لم يقرأ فيهما المعنى الذى يتلهف عليه. وبسبب انفعاله وحده راح يقنع نفسه بأنها هى هى.. ولفحه هواء البحر فى الركن المظلم وهو نصف عار، وملأت أنفه رائحة القرنفل المنبعثة من الشعر المبعثر. وثمل بشعور تفاؤل عجيب فقال إنه على نحو ذلك سيعثر على أبيه. والمؤكد بلا أدنى شك أن هذه الفتاة عى استعداد لشىء ما. إنها تقف منه موقفا حياديا فى الظاهر ولكنها تخاطب ماضيه وأعماقه بألف لسان. ولا شك أن وراء هذه القشرة الناعمة الصامتة اللامبالية مدينة مسحورة. ولو كان الظرف غير الظرف لدعاها إلى الرقص واحتواها بين ذراعية وقال لها بكل جرأة كيف يرضى بالعيش تحت هذا القبو من ترطب جسده بهواء البحر فى عطفة القرشى. ورد العجوز إليه البطاقة قائلا:

ـ إذن فأنت من الإسكندرية؟

فهز رأسه بالإيجاب مبتسما فغمغم الرجل بكلمات مبهمة،

فقال بمكر راميا الفتاة بنظرة سريعة :

ـ أراهن على أنك تحب الإسكندرية !

وابتسم جانب فم العجوز وحده ، وعلى خلاف توقعه أضربت الفتاة عن متابعته فشعر بخيبة ، ثم خطر له أن يسأله :

ـ هل عرفت يوما سيد سيد الرحيمى ؟

فضيق الرجل عينيه ثم قال :

ـ غير مستبعد أنى سمعت عنه . .

تركز صابر فى اهتمام أنساه كل شىء حتى الفتاة نفسها :

ـ متى وأين ؟

ـ لا أذكر ، لست متأكدا . .

ـ ولكنه من كبار الوجهاء . .

ـ عرفت كثيرين منهم ولكنى لم أعد أذكر أحدا . .

ومع أنه آثر ألا يزيد إلا أنه تمادى فى التفاؤل وقال إنه غير بعيد أن يهتدى إلى مكان أبيه اليوم أو غدا . والتقط فى اللحظة المناسبة نظرة من عينى الفتاة قبل أن تستردهما . قرأ فيها شكا وما يشبه السخريةوكأنها تتساءل عما دعا هذا الوجيه إلى النزول بفندقها المتواضع . ولم يضايقه ذلك وقال إن الحقيقة ستنجلى عندما تعرف مهمته وسوف تعرف عاجلا أو آجلا . ترى هل تذكرته؟ وشعر بغرز الأظافر فى ساعده عقب المطاردة البارعة التى بدأت من

ساحل الصيادين بالأنفوشى واستقرت فى الركن المظلم بعطفة القرشى، ولفح هواء البحر بدعابته القاسية نصفه العارى. ولكن أين كان أبوها فى ذلك الوقت؟ ومتى انتقل إلى إدارة هذا الفندق؟!.. ونادت المرأة قائلة:

- عم محمد يا ساوى.

فجاء عجوز من مجلسه عند الباب، عميق السمرة مائل للقصر دقيق الجسم تتكونملابسه من طاقية بيضاء وجلباب رمادى مقلم ومركوب، فأشارت المرأة إلى صابر قائلة:

- حجرة رقم ١٣.

ابتسم صابر لدى سماعه ارقم، ثم استأذن فى الذهاب لإحضار حقيبته، ولما عاد تبع عم محمدى الساوى إلى الحجرة فى الدور الثالث. وغادرها الرجل ثم دخل خادم يحمل الحقيبة. خادم بين الباب والكهولة، سريع الحركة بدرجة لا تتناسب مع العمل الذى يؤديه ضيق العينين جدا مستديرهما، صغير الرأس يوحى منظره بالسذاجة. وسأله عن اسمه فأجاب:

- على سريقوس.

وآنس فى نبرته امتنانا بدرجة أشعرته بالقدرة على امتلاكه وقتما يشاء وسأله:

- هل العجوز الجالس إلى المكتب هو صاحب الفندق؟

- نعم. عمل خليل أبو النجا..

وهم بسؤاله عن الفتاة ولكنه كبح رغبته عن حكمة إلى حين، وحذر نفسه قائلا: إن السذاجة سلاح ذو حدين! ولما خلا له المكان شمله بنظرة سريعة فتركت فى نفسه انطباعا بالقدم. السقف العالى والسرير ذو الأعمدة والكنصول، وقال إن أباه كان يعجب بهذا المنظر حينما أحب أمه. ودلف من نافذة عالية وأطل على ميدان صغير فى الطرف الشمالى من الشارع، تتوسطه فسقية تعج نافورتها رذاذ على غلمان مهللين. وأضاء المصباح ثم جلس على كنبة تركية قديمة. وراودته أخيلة أجنسية. وتخللتها أحلام بالعثور على أبيه. أما نداء العينين اللوزيتين المضيئتين فعجيب كل العجر. ولعلها الآن تفكر فى أمره وتساءل ولكن ليس ثمة ما يقطع بأنها هى هى. فى زحمة المولد نهرته قائلة لا تقترب منى هكذا، فقال متظاهرا بالكبرياء: لم تقلها بنت قبلك. فأجابت بكبرياء أشد: ولكنى أقولها وأعيدها. وذهبت فى صحبة امرأة شرسة والهواء يلعب بضفيرتيها فأين كان عم خليل؟! وعيناك اليوم التقت بعينيها أكثرمن مرة وتجلت معان، ولكن لم يلتمع بينهما ما يوحى بذكريات مشتركة. لم تقل عيناها إنها تذكر المجلس فوق سور الكورنيش عند قوارب الصيد المقلوبة. والأحاديث المفتعلة للتستر على الرغبات الجامحة. وقبلة خطفت أعقبتها معركة غير حامية. وعندما أعيتك الحيل صحت سأقتلع يوما أظافرها. أما يوم المطاردة الرائعة وصراع الركن المظلم وشذا القرنفل والهواء المشبع برائحة البحر فكانت نصرا صريحا، ثم تلاه اختفاء وصمت، لا هى ولا الأم الشرسة، وأسف دام طويلا، حتى انتقلت أمك من حال إلى حال واستقر بك المقام فى الشقة الأنيقة بالنبى دانيال. من

أدراك أن لهذا الفندق علاقة بعطفة القرشى؟! وأن هذه الفتاة المثيرة هى تلك البنت القرنفلية؟! على أى حال فهذه الفتاة تثير عاصفة فى دمك. وفى سواد مقلتيها ترى الليالى المعربدة بأنغامها الجنونية. وما أحوجك إلى دفء الشهوة المعزية فى فترات الراحة من البحث، وقيمة ذلك تتضاعف للوحيد الذى لا أهل له ولا صاحب له. وعندما تجىء المعجزة ستقول له:

ـ أنا صابر، صابر سيد سيد الرحيمى، هاك شهادة الميلاد، وهاك شهادة الزواج، وانظر جيدا فى هذه الصورة..

عند ذاك سيفتح لك ذراعيه وتنجاب عنك الوساوس إلى الأبد. وصرت امرأة أنيقه بكل معنى الكلمة، أين البنت المغطاة بملح البحر؟ أين رائحة غفلة العذرا؟!

ـ ٣ ـ

استيقظ مبكرا بعد ليلة لم ينم فيها سوى ثلاث ساعات. ووجد رغم ذلك نشاطا لم يحلم به من قبل. وفتح النافذة فلم ير المنظر الذى فى غفلة توقعه، منظر عمارات النبى دانيال وسعد زغلول وزرقة البحر على مرمى البصر وهواء الإسكندرية العامر بالفتن. رأى سماء ملفعة بالسحب السمراء، وفى الأفق الشرقى نضح الستار بياض ناصع، وعلى الأرض الخالية سعى فوج من العمال والباغة، وفى لمحة واحدة تجلت لمخيلته صورة أبيه ولوجه الدافئ المفعم بالإثارة، وجاءه على سريقوس بالفطور إلى حجرته فأكل

بشهوة عظيمة، ولما رجع الخادم ليحمل الصينية الفارغة سأله :

ـ من الفتاة التى كانت تجلس إلى جانب عم خليل أمس؟

ـ زوجته!

ليعترف بأن هذا لم يجر له فى بال، وكم بدا له مزعجا :

ـ من الإسكندرية؟

ـ لا أدرى . .

ـ متى امتلك عم خليل هذا الفندق؟

ـ لا أدرى، إنى أعمل هنا منذ خمس سنوات فقط .

ـ وهل كان وقتذاك متزوجا .

ـ نعم . .

هى بنت عطفة القرشى . اشتراها العجوز من المرأة الشرسة . وصنع منها امرأة حسناء طاغية، ولكن عليه هو أن يتفرغ لمهمته قبل أن ينفد آخر ما يملك من نقود . ووجد عم خليل أبو النجا بمجلسه وراء المكتب وهو يحادث عم محمد الساوى الجالس إلى يمينه . ولمح فى طريقه نفرا من الزلاء يجلسون فى الاستراحة ما بين متناول لفطوره وقارئ الجريدة . جاء بكرسى أمام المكتب ثم جلس رافعا يده بالتحية وهو يقول :

ـ عن إذنك دليل التليفون .

وفر الفحات حتى عثر على حرف السيد . سيد سيد . . وسيد

سيد الرحيمى! وخفق قلبه بقوة. هذا هو فى مدينته. ليس كصاحب مكتبة المنشية. والمهنة؟ طبيب بميدان الأزهار وأستاذ بكلية الطب. كما يحدث للوجهاء وأبناء الوجهاء. واستخفه فرح فتمتم:

ـ الظاهر أن ربنا سيرضى عنى..

فنظر عم خليل بعينيه المذكرتين بالآخرة فقال:

ـ الظاهر أنى سأنجح فى المهمة التى جئت من أجلها من الإسكندرية.

فغمغم العجوز:

ـ جميل أن ينجح إنسان.

كما نجحت فى شراء الفاتنة! ورآه ما زال ينظر إليه مستطلعا فقال:

ـ إنى أبحث عن رجل هو كل شىء فى حياتى.

فدعا له محمد الساوى قائلا:

ـ ربنا يحقق مقاصدك.

وقال عم خليل أبو النجا.

ـ لا يجئ أحد إلى هذا الفندق للإقامة ولكن لمهمة تستغرق ليلة أو أسبوعا أو شهرا ثم يمضى إلى حال سبيله.

ـ هذا طبيعى جدا.

ـ ولذلك فهم يتجاورون فى الغرف والمؤائد والاستراحة ويندر أن يعرف أحد منهم الآخر .

ـ يخيل إلى أن عملك مسل جدا؟

ـ لا شيء مسل على الإطلاق!

ومغالطة الزمن أليست مسلية؟! وسمع وقع حذاء نسائى بأجل قيامه الذى هم به. وجاءت الزوجة مدملجة الجسم فى جونلا سوداء وبلوزه حمراء مطوقة الرأس والخدين بإشارب أبيض منمنم. ووشى خطر انها باكتناز سوى هو الوسط المثالى بين النحافة والبدانة، فسرعان ما ثمل أنفه بعبير أنثوى مسكى عصف بعقله وقلبه، وهى وإن لم تبتسم إلا أن عينيها عكستا نظرة راضية موحية كأرض خصبة لم تزرع بعد. ونهض عم محمد الساوى وهو يحبك معطفا رماديا قديما، أما عم خليل فقد رفع إليها وجهه متمتما :

ـ نويت بالسلامة؟

فقالت بصوت حلقى دسم :

ـ فتك بعافية .

ومضت إلى الخارج يتبعها عم محمد الساوى. أنت سر من الأسرار يا عم خليل. . ووجهك يصلح رمزا للموت كعلم القرصان. ولم يرتكب أناس الأخطاء بلا تبصر؟ وقام متظاهرا بالهدوء فحيا الرجل وغادر الفندق. وسبقته عيناه إلى كافة أنحاء الطريق حتى رأى المرأة والعجوز يميلان مع ميدان الفسقية فأسرع

فى مشيته حتى لحق بهما. والتفت عم محمد نحوه فابتسم كالمعتذر وقال:

ـ لا تؤاخذنى يا عم محمد، أود أن أعرف الطريق إلى ميدان الأزهار؟ والتفتت نحوه المرأة فى شيء من الدهشة. ووقف عم محمد ليصف له طريق الوصول باضطرت المرأة إلى الانتظار. وتظاهر بالإنصات إلى كلام عم محمد دون أن يعى منه كلمة، وكلما وجد فرصة آمنة حدج المرأة بنظرة فتتلقاها بالرضى الهادئ المثير للطموح بلا دليل. انتهى من شرحه فشكره ثم ذهب. ترى أين هى ذاهبة مع كلب الحراسة؟ وألم تكن جرأته سابقة للأوان؟ إنه دائما جريء غير أن الجرأة هذه المرة قد تفسد عليه البحث أو تعرقله. وبلغ ميدان الأزهار مستعينا بالمارة ولم يجد فى العيادة سوى التمرجى. وأخبره الرجل أن الطبيب يحضر عادة حوالى الثانية عشرة فجلس لينتظر. هل ترددت أنفاس أبيه فى هذه الشقة؟ ها هو القلق يساوره والجزع. والأمل واليأس. وكلما تقدمت الساعة قل صبره. وإن وجد أباه حقا فكيف يكون موقفه منه؟ كيف يتصرف أن أنكره أو طرده؟ ولكنه سيستميت فى الدفاع عن حقوقه، ولذلك تبدى فى أحسن مظهر، ولم يخف عليه أن التمرجى رمقه باحترام وإعجاب! ولكنه تذكر أنه لعجلته واضطرابه لم يعرف اختصاص الدكتور! وخرج من حجرة الانتظار إلى الصالة فجلس فى قبالته التمرجى وسأله:

ـ من ما اختاص الدكتور؟

ـ القلب؟.. حضرتك طبعا..

ـ أردت أن أتأكد، أصلى من الإسكندرية!

وشعر بسخافة أسئلته ولكنه لم يبال، بل عاد يسأله:

ـ هل عندك فكرة عن عمره؟

فأجاب الرجل مندهشا:

ـ لا أدرى عن ذلك شيئا!

ـ ولكنك تفرق ولا شك بين الشباب والكهولة!

ـ إنه أستاذ بالكلية!

ـ وهل هو متزوج؟

أعلن التمرجى عن مدى استغرابه بضحكة ثم قال:

ـ متزوج وأب، وله ابن طالب بالكلية..

عقبة وأى تعترض أمله فى القبول، وسيكون للأسرة رأى فى العضو الجديد القادم من ماخور ولا مؤهل له غير جماله المبذول للفجور. ولكن إصراره بلغ المنتهى. وجاء المرضى تباعا حتى امتلأت الحجرات. ثم دعاه التمرجى إلى حجرة الكشف. ونفخ سحب القلق والوساوس ودخل. رأى وجها لا يمكن أن يرجع بحال إلى أصل الصورة التى يحملها ولكن من يتصور أن أمه ـ فى آخر ليلة لها ـ يمكن أن ترجع إليها؟ وجلس أمام مكتب الدكتور وراح يجيب على أسئلته التى شرع فى تدوينها فى دفتر كبير:

ـ اسمى صابر سيد سيد الرحيمى.

ضحك الدكتور قائلا :

ـ عال : أنت إذن ابنى ، وما عمرك؟

ـ الواقع أننى لا أشكو مرضا على الإطلاق!

فحدجه بنظرة متسائلة فقال :

ـ إنى أبحث عن سيد سيد الرحيمى . .

ـ عنى أنا؟!

ـ لا أدرى ولكن تفضل بالنظر فى هذه الصورة!

تفحصها الدكتور ثم هز رأسه بالنفى .

ـ لست صورة حضرتك؟

ضحك قائلا :

ـ بالتأكيد لا ، ومن هذه الفتاة الجميلة؟

ـ أليس لأحد من أقربائك؟ لاحظ أن تاريخها يرجع إلى ثلاثين عاما مضت . .

ـ ولا هى لأحد من أقربائى .

ـ حضرتك من أسرة الرحيمى؟

ـ والذى سيد الرحيمى ، كان موظفا بالبريد .

ـ أليست للأسرة فروع لم تعرفها؟

ـ أسرتى محدودة أصلا وفرعا!

قام يائسا وهو يقول :

ـ آسف على إزعاجك، ولكنك ربما سمعت عن أحد الوجهاء بهذا الاسم . . ؟

ـ لا أعرف وجيها بهذا الاسم، ولكن ما الحكاية بالضبط؟

ـ الحكاية أنى أبحث عن وجيه يدعى سيد سيد الرحيمى، صاحب هذه الصورة منذ ثلاثين عاما .

ـ لعله هنا أو هناك وأنا على أى حال لست مرجعا فى هذه الشئون .

وقضت نبراته بإنهاء الحديث فحياه وانصرف . ودخل أول قهوة صادفته فجلس إلى البار ثم طلب براندى . ها هو يبدأ من جديد . وما إغراء دليل التليفون إلا خدعة سخيفة . وتبدد التفاؤل الوهمى الذى اجتاحه منذ رأى زوجة عم خليل . وتذكر سلسلة الأبحاث التى قام بها فى الإسكندرية من الشهر العقارى ومشايخ الحارات وأولياء الله ولكنه يحتاج لإعادة ذلك إلى مرشد ولا أحد له فى القاهرة . لذلك استحسن أن يبدأ بالإعلان ولعله أرخصها وأسهلها وأجداها . ونظر إلى الساقى العجوز وسأله :

ـ ألم تسمع عن سيد سيد الرحيمى؟

ـ دكتور فى العمارة التالية .

ـ كلا، أعنى الوجيه سيد سيد الرحيمى؟

ردد الخواجا الاسم كأنه يلوكه فى ذاكرته ثم ثال :

ـ لا أذكر زبونا بهذا الاسم .

ـ ألم يحدث لك أن بحثت عن شخص وأنت تجهل مقامه؟

أجاب وهو يمد بصره إلى لا شيء :

ـ ابن مفقود من أيام الحرب!

هز صابر رأسه معلنا عن أسفه ثم قال :

ـ ولكن الحرب انتهت وعرف مصير كل من اشترك فيها .

ـ أن أعتبره مفقودا خير من التسليم بموته!

وسأل الخواجا عن موقع جريدة أبو الهول فوصفه له بميدان التحرير . ذكره مبناها الأبيض المربع ، والفناء الذى تتوسطه فسقية بفيللا ثرى يونانى بالأزرايطة . ومضى نحو الباب الداخلى فرأى فتاة واقفة على عتبته وما لبثت أن أشارت إليه . دهش صابر وأحد إليها بصره ولكن ساعيا مرق من جانبه متجها نحوها فأدرك أن الإشارة لم تكن له ، وسلمها الساعى شيئا ثم اختفى وراء الباب ، ووجد صابر نفسه أمامها ، رشيقة نحيلة ، لفت انتباهه فيوجهها تناقض محبوب جمع بين سمرة البشرة وزرقة العينين ، وتكوين الرأس والوجه غاية فى الأناقة والبداعة ، انبعث إليه منه شهور بالجذب والطمأنينة ، ثم استعاد نشوة نبيذ يتافرنا وهو يسمع عزف كمان . وحياها باسما ثم سألها عن قسم الإعلانات فقال بصوت رقيق موحى بالثقة بالنفس :

ـ أنا ذاهبة إليه .

ولحظها منقبا عن ماضع للإثارة ولكن طرفه رد ممتلئا بالإعجاب وحده. ودخلا الإدارة فأشارت إلى رجل فى الصدر حملت لافتة مكتبه اسم «إحسان الطنطاوى» فحياه، ثم دعاه الرجل إلى الجلوس على كرسى بين مكتبه ومكتب الفتاة التى جاءت به. وأبان صابر عن مقصده قائلا إنه يرغب فى الاهتداء إلى شخص يدعى سيد سيد الرحيمى ، فتساءل الرجل:

ـ دكتور القلب؟

فأجاب بالنفى، وتوقع أن يسمع منه مزيدا عن الشخصيات التى تحمل هذا الاسك ولكنه لم يفعل، فقال:

ـ فى الحق أننى لا أعرف سوى اسمه . .

ـ أليس لديك فكرة عن عمله أو مكانه؟

ـ كلا ألبتة، كل ما أعلمه عنه أنه من الوجهاء، محتمل أن تكون له مهنة تناسبه ولكنى لم أجد فى الدليل إلا الدكتور.

ـ قد يكون رقمه سريا، وقد يكون من أعيان الريف، وعلى أى حال فالإعلان أو جز سبيل إليه.

ـ ليكن إعلانا صغيرا بقدر الإمكان، ويوميا لمدة أسبوع، فى شكل دعوة للاتصال بى بفندق لاقاهرة سواء بالمراسلة أو بالتليفون.

ـ لابد من ذكر اسمك فى الإعلان.

وفكر بسرعة وقلق ثم تمتم:

ـ صابر سيد .

ولم تتحقق مخاوفه فراح الرجل يخطط صورة للإعلان فلا حظ صابر أن الفتاة تتابع حديثه فلم يشك فى أن غرابة الإعلان هى التى أغرتها بذلك . ورأى ثمة مكاتب أخرى يجلس إليها موظفون وموظفات، وعرف اسم الفتاة «إلهام» وهى تخاطب به، وسمع إحسان الطنطاوى يسأله :

ـ ألا تشير إلى الغرض من إعلانك؟

ـ كلا . .

ثم بعد هنيهة صمت :

ـ المؤسف أننى ظننت أن الذين يعرفونه فى القاهرة لا حصر لهم ولكنى لم أجد حتى الآن أحدا يعرفه .

ـ موضوعك غريب، الاسم وحده! وكيف تتأكد من هوية من يتقدم إليك مدعيا أنه سيد سيد الرحيمى . . ؟

ـ لدى ما أستدل به على ذلك!

وقالت إلهام وقد غلبها حب الاستطلاع :

ـ فى المسألة سر عجيب، كأسرار السينما!

ـ على الأقل أنت تعلم أنه وجيه من الوجهاء فكيف عرفت ذلك؟

سكت صابر مليا فقال إحسان الطنطاوى بلهجة جدية :

ـ هذا سؤال على مستوى التحقيق!

آه، هذه الطفلة الكبيرة، لعلها على استعداد للميل إليه، وهى طاقة من عبير لطيف يدعو إلى استباحة الأسرار، ليست كالنار التى صهرته بالفندق، وقال:

ـ يا آنسة إلهام أنا رجل غريب فى بلدكم. .

ـ غريب؟!. .

ـ أجل أنا فى الأصل من الإسكندرية وجئت القاهرة أمس فأنا غريب فى بلدكم ويهمنى جدا العثور على ذلك الرجل، وإنى أستبشر خيرا بوجهك!

ابتسمت بشجاعة الفتاة العاملة، ومرة أخرى تذكر نشوة النبيذ بتافرنا على أنغام الكمان.

ـ ٤ ـ

غادر الجريدة وموظفو الإدارة يتأهبون للانصراف. خطر له أن ينتظر قليلا ليلقى نظرة أخيره على إلهام فوقف ضمن الواقفين تحت مظلة محطة للبص. إشعاعها اللطيفلم يزل ناشبا فى خياله وقد تخفف من عبء البحث إلى حين بوضع ثقته الكاملة فى الإعلان. وجرى هواء مائل للبرودة فى جو أبيض امتص لونه من سحاب ناصع البياض فأضفى على الدنيا حلما رائقا. ورأى إلهام وسط مجموعة من الشبان والشابات وقفوا أمام الجريدة متبادلين كلمات سريعة وابتسامات قبل الافتراق، ثم عبرت الفتاة شارعا جانبيا للجريدة إلى محل صغير يدعى فتركوان واختفت داخله.

تبعها بلا تردد، ثم نظر إلى الداخل من خلال حاجز زجاجى فرآها جالسة إلى مائدة منفردة، وتبين حقيقة المحل وهو مطعم للشطائر ومشرب للعصير والقهوة. دخل كأنما يقصد البوفيه ثم لمحها ـ مصادفة ـ فتهلل وجهه ومضى إلى مائدتها فى أقصى المحل والنادل يضع أمامها طبقا بالشطائر وكوبا من عصير البرتقال:

ـ مصادفة جميلة جدا، هل تسمحين لى بمشاطرتك المائدة؟

قال دون حماس ودون فتور:

ـ تفضل..

وطلب غداء كغدائها، وزاد انتعاشا بإشعاعاتها التى ترفعه إلى مستوى غير مألوف فى علاقاته مع الناس. وشعر ببهجة غريبة:

ـ لا شك أننى أبدو ثقيلا ولكن هكذا يبدو الغريب!

ـ إنى أرحب بالغرباء.

ـ شكرا، أقصد أن لهفة الغريب على التعرف بالناس تنفرهم منه؟

ـ ليس فى مشاركة عابرة كهذه ما ينفر إطلاقا.

وشكرهم ثم تناول أولى شطائره.

ـ لعلك ذاهبة إى السينما؟

ـ لا، ولكننا نستأنف العمل فى الجريدة بعد ساعتين أو أكثر قليلا، ولما كان بيتى فى أقصى الجيزة والمواصلات كما تعلم فإننى

أفضل كثيرا أن أتناول طعامى هنا . .

ـ وهل تبقين هنا طوال الوقت؟

ـ بعض الوقت وأتمشى على النيل البعض الآخر .

ورحا يتناولان طعامهما . واسترق ـ كلما وجد فرصة ـ النظر إلى فيها وهو يمضغ الطعام، وإلى أصابع يديها ، متمليا ما أمكن زرقة العينين فى البشرة السمراء .

ـ ماذا ترين فى الإعلان ، هل يحقق المقصود منه؟

ـ هو كذلك دائما .

قصد أن يوقظ حب استطلاعها ولكنها لم تتماد فى الكلام فقال :

ـ كم تهمنى النتيجة .

ـ ألا تعرف شيئا عن الرجل الذى تبحث عنه؟

ـ عندى صورة وبعض معلومات طفيفة . .

ثم بعد لحظة تفكير :

ـ إنى موفد للبحث عنه من قبل والدى العجوز الذى كان يعرفه فى الزمن القديم . .

وقرأ فى عينيها الصافيتين تساؤلا فقال باسما :

ـ معاملات قديمة .

ـ مالية؟

ـ لا تخلو من هذا الجانب الهام!

أن تتحقق أحلام لم تخطر بالبال هو ما يطمعك فى المستحيل، وهذه الفتاة من معدن يخلق النشوات.

ـ لم أشعر من قبل بمثل هذا الشعور!

فرفعت حاجبين مقوسين متباعدين فى تساؤل إنكارى فقال مفسرا:

ـ الغربة والأمل وصحبتك اللطيفة!

ـ فيما يتعلق بصحبتى أرجو ألا تكرر أقوالا أسمعها كثيرا ولم أجد لها معنى.

ـ تسمعينها فى الإدارة!

ـ مثلا.

ـ هل أنت سعيدة فى العمل؟

ـ هه!

ـ هل تتركينه للبيت فى حينه؟

ـ إنى أعتبره عملا لا محطة.

وفكرته الثابتة عن الجنس الآخر لا يمكن أن تتغير. هو فى نظره سلسلة من المخلوقات الوحشية الفاتنة الباحثة عن الغرام بلا مبدأ. أمه وقريناتها وفتيات الكنار الليلى وعطفة القرشى. وحتى نشوته

الصاعدة إلى فوق لم تستطيع أن تزعزع هذه الفكرة الثابتة، ومع ذلك لم يشأ أن يجردها ـ فى خياله ـ من ثيابها وهى عادة مزمنة لم تفارقه. تجريدها من الثياب غيرمجد لأن سحرها لا يستقر بموضع بالذات، شائع كضوء القمر. وبه جانب مجهول تتعلق به الآمال كمستقر أبيه، ولن يتحقق سروره بها كسروره بالأخريات أى بالبهلوانيات والألفاظ الجارحة والأفعال الشائنة والعبث الهمجى الوقح. هى شىء فريد. وفى ساعات قلائل كشفت عن طبيعة ثانية فيه وعن ذوق لم يذق به الأشياء من قبل.

ـ ومع ذلك فانظرى إلى عنايتك بأظافرك!

لاح فى وجهها الاحتجاج فى صورة طابع جدى وقالت:

ـ عنايتك بشعرك ليست دون ذلك!

ـ اعتبرى ملاحظتى طريقة غير مباشرة بالإعجاب.

ثم مستديركا بنبرة اعتذار وهو ينظر إلى اللوز الوردى المغروس فى البنات:

ـ عندما سأعود إلى الإسكندرية سأحمل منك أجمل ذكريات القاهرة.

ـ لم لم تعلن فى فرع الجريدة بالإسكندرية؟

وهم بأن يدفع ثمن الغداء لها ولكنها أبت ذلك بإصرار فعدل عنه قائلا:

ـ لو أردت أن تفعلى نفس الشىء لما رفضت.

فقالت ضاحكة :

ـ ولا هذه!

وفى مرآة مثبتة فى الجدار الأيسر ضبطها وهى تتفحصه باهتمام فارتاح لذلك جدا. ليكن تأثيره كتأثيره فى الأخريات! وتذكر الأسرار التى كشفها فى ماضيه القصير فابتسم. النوافذ والغابات والروائح الفطرية الفاتنة. وقامت لتذهب فصافحها مودعا ولكنه لم يتبعها رغم رغبته الشديدة فى ذلك. وأدرك أنه من المحتمل جدا أن يطلع نزلاء الفندق وصاحبه على الإعلان، وأن علاقته بمن يبحث عنه لن تخفى على أحد. ولما أخبر خليل أبو النجا ومحمد الساوى عن المكالمة التليفونية المنتظرة قال العجوز :

ـ إذن أنت تبحث عن أبيك؟!

فتورد وجهه وأحنى رأسه بالإيجاب.

ـ وكيف فقدته؟

ـ فقدته كما فقدنى وها أنا قد قمت للبحث عنه.

ـ لا شك أنها قصة عجيبة!

وتضايق من الأسئلة المطوقة فقال :

ـ بل عادية جدا فأرجو استدعائى عند الطلب.

الشاب الذى يبحث عن أبيه، هكذا سيطلقون عليه. وسيقولون ويتقولون. وهز كتفيه استهانة. ولزم الاستراحة أكثر الوقت وكلما رن التليفون تعلق به بصره. ووقعت مكالمات غير مجدية فاتصل به سيد سيد الرحيمى الحلاق ببولاق وثان مدرس

لغة عربية وثالث سائق ترام وقابلهم واحدا فواجدا، كما قبل الدكتور من قبلولكن لم يكن لأحد منهم علاقة بمن يبحث عنه. أين من يبحث عنه إذن؟ ولم لم يتصل به كما فعل الآخرون؟ إذا كان قد مات أفلم يترك ابنا أو قريبا؟ وتذكر نقوده التى تتناقص باستمرار بجزع شديد. ومن حوله جلس كثير من النزلاء وتطايرت رائحة القهوة والسجائر ولكن أحد لم يلق إليه بالا وكأن الإعلان لم يقرأه أحد وهو ما حمد الله عليه. ولكن ما عسى أن يصنع إذا تتابعت الأيام بلا نتيجة؟ ماذا لو نفد المال ولم يظهر الأب؟ أنت قواد أو بلطجى؟ وعهد النبى دانيال الذى مضى كعبير طيب بددته الريح. عرف حب الأم وإغداقها المال بلا حساب وعرف مسرات الحياة بلا خوف أو ندم. وقالت الحياة جميلة وأنت زهرتها. وحيى عند الوعى بحقيقة الأمر خضعت لها باعتبارها مصدر كل شىء. وأنت ترقص فى ملهى الكنار الليلى صاح مخمور أكل الغيظ قلبه:

- يا بن بسيمة!

فكانت معركة دامية وتناثر الزجاج، ولا شىء يحمى السمعة السيئة إلا القبضة الحديدية. وما دامت بسيمة قد دفنت فلا أمل إلا إذا جاء الأب. وقال أحد القاعدين فى الاستراحة:

- القطن! كل شىء يتوف على القطن!

لم؟ أهو رحيمى آخر؟ وهو لولا الإعلان ما تصفح جريدة. حتى أنباء الذرة وغزو الفضاء جاءته عن طريق السكارى بملهى الكنار. وتساءل رجل آخر:

ـ وهذه الحروب التى تهدد العالم ألا تضمن لنا القطن؟

ـ لن تكون كالحروب الماضية .

ـ أجل أنها لن تبقى على شىء . .

ـ القطن والفول والبهائم والخلق!

فتساءل الصوت الأول :

ـ وأين الله خالق كل شىء وحافظه؟

أين الله حقا؟ هو عرف اسم الله ولكنه لم يشغل باله قط . ولم تشده إلى الدين علاقة تذكر . ولا شهد النبى دانيال ممارسة عادة دينية واحدة فهو يعيش فى عصر ما قبل الدين . . وقضى عليه بأن يمضى أجمل أوقات النهار بين ثرثارين أغلبهم من الريف ، ورائحة السجائر تختلط دائما برائحة البصل الأخضر . وإذا اشتدت مرارة الصبر تسلى بتخيل إلهام أو زجة عم خليل أبو النجا . والهواء ضرورى جدا والنار لا غنى عنها . وسوف يصمت إلى الأبد دون أن ينبس لسانه بجواب يخرجه من حيرته . وإذا لم يلب أبوه النداء أفليس من الخير أن تنفجر الذرة لتهلك كل شىء؟ الخوف والجوع والماضى الملوث؟ ومرة حانت منه التفاتة إلى التليفون فرأى زوجة عم خليل بمجلسها الذى رآها به أول مرة . إذن الصارخ والنظرة المتآمرة مع الغرائز . ونسى التليفون والرحيمى وإلهام . وصعد إلى حجرته فى الدور الثالث وانتظر وراء الباب ، ثم سمع وقع أقدام صاعدة فخرج إلى الطرقة فالتقيا فى منتصفها . وتظاهر بالمفاجأة وقال :

ـ حمدا لله على سلامتك!

ـ تركت خلفك وحشة حقيقية!

فجادت بهزة شكر من شعرها الأسود وسارت فى طريقها المفضى إلى سلم الدور الرابع غير أنه همس بجرأة :

ـ الإسكندرية!

تباطأت حتى وقفت تقريبا على بعد ياردة منه متسائلة :

ـ الإسكندرية؟

ـ أجل، إلاسكندرية .

قالت مقطبة :

ـ لا أفهم شيئا!

فقال بإصرار :

ـ إن كنت نسيت فأنا لا يمكن أن أنسى .

ـ أنت مجنون؟

قالتها بثبات زعزع ثقته فتساءل :

ـ ألست . .

ولكنها قاطعته وهى تمضى فى سبيلها :

ـ لعبة قديمةوسخيفة .

واستدرك قبل أن يوغل فى الابتعاد :

ـ على كل حال تقبلى إعجابى . .

واعتمد على الداربزين حتى يتمالك أنفاسه، حتى تبرد بعض الشيء النار الحامية. وتملكته لحظة جنونية فتمنى لو يهلك جميع من فى الفندق ليخلو لهما وحدهما. كما عصف به الجنون ليلة المطاردة التى اندلعت من ساحل الصيادين بالأنفوشى. وإذا بعلى سريقوس يهبط السلم وهو يدندن بموال صعيدى فجره إلى موقفه بإشارة وقال بمكر:

ـ سمعت صوتا يناديك لعله صوت الست!

ـ الست؟

ـ حرم عم خليل؟

ـ كلا. لعلها الحجرة ١٦، أنا قادم من عند الست وهى تدخل شقتها.

ـ ربما، وستتأكد بنفسك، ولكن هل تقيم الست فى شقة؟

ـ شقة عم خليل فوق السطح.

ـ وأين كانت طوال الأيام الماضية؟

ـ عند أمها، إنها تزورها كل شهر.

ورمق ظهر عم خليل، وهو نازل ـ باحتقار ومقت، وكره فكرة العودة إلى مجلسه بالاستراحة فغادر الفندق. تمتع بشمس ترسل أشعتها من سماء صافية فى جو يتيه ببرودة لطيفة محببة ورغب فى المشى بنهم فمشى بلا هدف وهو يأسف على أنه لا يجد فراغ البال

لمشاعدة القاهرة. وتذكر أن مدة الإعلان ستنتهى بعد يوم فمضى إلى جريدة أبو الهول، والحق أنه كان يرصد ميعاد الذهاب إلى الجريدة ليرى إلهام من جديد. وجد إحسان الطنطاوى مشغولا لا يزبون فصافح إلهام ثم جلس على الكرسى بين المكتبين. توقفت عن دق الآلة الكاتبة وسألته:

- لا جديد؟

أجاب وهو يفيق نهائيا من لفحة الجحيم:

- مكالمات ومقابلات غير مجدية..

- الصبر طيب.

تابع أصابعها فوق أحرف الآلة بارتياح خفف عنه متاعبه، وبدا عنقها طويلا وهى خالعة جاكتتها وفى صفحته اليسرى لاح خال. ورغم سعادته برؤيتها فاجأه حزن طارئ لا تفسير له. وتبين أن إحسان الطنطاوى ينجز إعلان وفاة فحاصرته ذكريات الليلة الأخيرة لأمه. ووضحت له تعاسة مركزه فى الوجود إذ يعتمد كلية على شبيه بالسراب. وحانت فى تلك اللحظة التفاتة سريعة من إلهام إليه فانشرح صدره وتجاهل همومه. وفرغ إحسان الطنطاوى من إعلان الوفاة فحياه قائلا بشىء من الخبث:

- تجديد؟

ضحك وهو يحنى رأسه فى تسليم، ثم سأله:

- جاءنى كثيرون أما هو فلا حياة لمن تنادى، ما تفسير ذلك؟

ـ إلاعلان من هذا النوع يتطلب المثابرة .

ـ ولكن المفروض أن الرجل معروف على أوسع نطاق !

ـ أنت لا تعرف سوى اسمه ، وما عدا ذلك بالسماع عرفته ولا يمكن أن تقطع فى ذلك برأى حاسم ، وأنا رجل عشت فى مختلف الأوساط بالقاهرة زهاء ثلاثين عاماولم أسمع عنه . .

ـ ولكنى أصدق تماما من أرسلنى للبحث عنه .

ـ إذن ففى المسألة سر ستكشفه لك الأيام .

تفكر قليلا ثم قال :

ـ عندى له صورة قديمة أخذت له منذ ثلاثين عاما .

ـ نضيفها إذا شئت إلى الإعلان فتضاعف من فائدته .

وأراه الصورة فتفحصها ثم تمتم بإعجاب :

ـ يا له من شخصية !

وانتظر صابر فى إشفاق أن يلاحظ الرجل وجوه الشبه بينه وبين صاحب الصورة ولكنه لم يلاحظ شيئا ، ومضى يتحدث عن الإعلان الجديد وتكاليفه . ووافق صابر على الاقتراح مرغما . ثم غادر الجريدة وهو يفكر فى نقوده التى تتناقص يوما بعد يوم ، والتى سيضحى بعد نفادها معدما كمتسول . وذهب إلى فتروان فجلس إلى مائدة إلهام ينتظر . ولما رأته ترددت فى شىء من الارتباك ولكنه أزال ترددها بوقوفه مرحبا ، وبمجرد أن جلست طلب الغداء من الشطائر والعصير ، وتصرف بلا كلفة ليبدد دهشة اللقاء . وإذا به تقول :

ـ رأيت الصورة!

ـ حقا؟

ـ أنت تشابهه!

ـ تعنين الرجل؟

هزت رأسها موافقة وهى ترمقه بارتياب فلم يجد بدا من اختلاق كذبة جديدة فقال:

ـ إنه أخى . .

ـ أخوك؟ معقول جدا ولكن لماذا لم تقل ذلك من الأول؟

فابتسم ولم يجب فسألته:

ـ ومن الفتاة الجميلة!

ـ كانت زوجته رحمها الله . .

ـ آه، وهل . . أعنى أخاك . . كيف . .

ـ اختفى قبل مولدى . خلاف ثم اختفاء كما يقع أحيانا، وأخيرا بعد ثلاثين عاما أرسلنى أبى للبحث عنه . .

ـ حقا إنها قصة مثيرة، ولكن لم تعتقد أنه شخصية معروفة؟

ـ هكذا قال لى أبى، ولعله مجرد استنتاج، ولكن العجيب أن إحسان الطنطاوى لم يلاحظ الشبه بيننا عندما أريته الصورة فهل حدثك عن ذلك بعد ذهابى؟

ـ كلا ، رغم وضوح الشبه ، ولكن رأس الأستاذ إحسان مشغول بالحسابات . .

وجاءت أطباق الشطائر فبدأ الغداء . وعند ذلك قال معتذرا :

ـ آسف على تطفلى ، ولكنى وحيد فى المدينة والفراغ يوشك أن يقتلنى فقبلت عذره بابتسامة وسألته :

ـ كيف تمضى وقتك؟

ـ فى الانتظار .

ـ هذا ممل جدا ، ثم إن البحث غير الانتظار .

ـ ولكنه لا يخلو من فترات انتظار .

ـ وماذا تفعل فى أوقات الانتظار؟

ـ لا شيء !

ـ غير معقول .

فقال برجاء :

ـ من هنا تلمسين مدى حاجتى إلى صديق .

ووشى تورد وجنتيها بتشربها الإشارة فتشجع قائلا :

ـ وأنت الصديق !

شربت قليلا من الماء ثم واصلت الطعام فتساءل :

ـ ما رأيك؟

ـ قد تكون مغاليا فى ظنك .

ـ هذه الشئون تعرف بالقلب .

ـ يمكن أن نتقابل كلما جئت لتجديد الإعلان .

فضحك قائلا :

ـ مادام يهمك العثور عليه .

ـ هو ذلك ، ولكن إذا أثبت الإعلان عقمه فسوف أستأنف البحث .

ورفعت كوب البرتقال فرفع كوبه قائلا :

ـ صحتك !

ـ أنت تشجعنى على الحذر منك !

وشربا وهما يتبادلان الابتسام . وقال إنه ما كان يطاردها لو كانت مكان الأخرى عند ساحل الصيادين . وقال كنها عزيزة جدا وهو يحبها . «ومن الفتاة الجميلة؟» عجيب موقع السؤال من أذنك . لكونها لم ترها فى الليلة الأخيرة . ولمتر كفنها النحيل كلا شىء .

وقال بدهاء :

ـ أشكرك جدا !

وجدت فى الشكر فخا ولكنها لم تبد احتجاجا . وحل صمت سعيد فانغرست بدور التفاهم . وطريق البحث شاق ومحرق وطويل فيحتاج إلى استراحة من الظل الظليل .

- ٥ -

تعب البصر من تفحص الوجوه. وشوارع القاهرة الزاخرة بتيارات البشر والسيارات كأمواج البحر فى الأيام العافة. وسحب الخريف الواردة من الإسكندرية يتبدد أكثرها قبل الوصول إلى سماء القاهرة ولكن ذكريات الإسكندرية مشتعلة أبدا فى القلب المنتظر. ولم تعد استراحة الفندق مرهقة مذ عادت المرأة من رحلتها ولكنها فى الحق معذبة. وليس نادرا أن ترى بمجلسها إلى جانب زوجها وأنت ترصدها من أقصى الاستراحة، ولها نظرة دسمة موحية تنفجر همساتها كالشرر. وكم من محاولات فاشلة بذلت للانفراد بها فى طرقات السلم، وقد تدرى بها من بعد فتفسدها عليك ثم تجىء إلى مجلسها ساخرة. وهى لا ترد ابتسامة وتتجاهل أى إشارة. ومن خلال حيرة ضبابية تلتمع بوارق إغراء لاسلكية. وكلما جن جنون الإثارة تمنى الهلاك لجميع من بالفندق لينقض عليها فى الخلاء الصامت. فى هذه الحالات الجنونية تتزوى إلهام فى ركن كالندم عند طغيان الجريمة. ويفيق أحيانا على روائح السجائر والبصل وأحاديث القطن والقمح والحرب المدمرة. لعلهم مثلك يجرون وراء أمل شبيه بما يعدك به أبوك المفتقد. ومن صميم ذهوله استيقظ مرة على صوت محمد السماوى وهو يهتف:

- صابر أفندى.. تليفون..

وثب فى انتباه حاد واندفع نحو المكتب. هل أخير..؟

وتأهبت جميع حواسه لسماع الكلمة الموعودة .

ـ آلو؟!

ـ حضرتك صاحب الإعلان؟

أجـاب وهو يحس بدبيب دمـوع الراحـة فى أقـصى مسـالك عينيه :

ـ نعم من حضرتك؟

ـ أنا الرجل الذى تطلب فيما أعتقد . .

ـ سيد سيد الرحيمى؟

ـ نعم . .

أزدرد ريقه بصعوبة ثم قال بصوت متهدج :

ـ كيف أقابلك؟ أى مكان تحدده؟

ـ ولكن لماذا تريدنى؟

ـ فلنؤجل ذلك للمقابلة . .

ـ أفضل أن تعطينى فكرة قبل المقابلة . .

ـ لكن ذلك متعذر بالتليفون ولا ضرر من المقابلة ألبتة . .

ـ هل يمكن أن أعرف من أنت؟

ـ اسمى منشور فى الإعلان . .

ـ أعنى مهنتك أو عملك؟

ـ من الأعيان . .

ـ ولم تريدنى؟

ـ شتعرف ذلك فى الوقت الذى تحدده، وكله خير . .

وسكت الصوت قليلا ثم قال :

ـ تعال الآن . . إليك العنوان : فيللا ١٥ شارع التلبانة بشبرا .

سأل عم خليل وعم محمد عن العنوان ولكنهما لم يعرفاه وقال له الساوى :

ـ أسماء الشوارع تتغير فى كل ساعة، اذهب إلى شبرا أولا ثم اسأل هناك عن الشارع . .

وذهب إلى برا، وحرق ساعات النهار فى البحث والسؤال مندفعا بإصرار محموم ولكنه لم يجد أحدا قد سمع عن الشارع . ولما أعياه التخبط ذهب إلى قسم شبرا وهناك تأكد من عدم وجود شارع بهذا الاسم . تداعى إلى فراغ اليأس هل أخطأ السمع؟ هل عبث به عابث؟

ورجع إلى الفندق وصوت الشحاذ يعلو بالمديح فكره كل شىء إلى حد المرض . ولما رأى المرأة فى مجلسها المألوف امتزجت كراهيته بربة عنيفة دموية . وأخبره الساوى أن شخصا سأل عنه فى التليفون أكثر من مرة، ورجح أنه نفس الشخص الذى طلبه أول النهار، فعاوده الأمل وقال إنه أخطأ السمع بلا شك وأن الرجل استبطأه فكرر السؤال عنه . وتمتم عم خليل :

ـ وفقت إن شاء الله؟

فأجاب متظاهرا بالمرح :

ـ فى الطريق . .

وخطف من المرأة نظرة ثم مضى إلى مجلسه بالاستراحة منهوك القوى، وتسللت إلى المكان كآبة مساء الخريف فأضيئت الأنوار . واختفت المرأة فازدادت الكآبة كثافة . لا شك أن الرجل سيعيد المكالمة . وإذا بالساوى يلوح له بالسماعة فهرع إليه :

ـ آلوا . .

ـ صابر؟ . . فات النهار ولم تأت؟

ـ لكنى لم أجد الشارع . .

ـ هل بحثت عنه حقا؟

ـ طول النهار تقريبا . . التلبانة رقم ١٥ شبرا . .

ـ حقيقة إنك حمار . .

وضحك ضحكة طويلة قبل أن يغلق السكة . أعاد السماعة وغادر الفندق . انتفض طوال الوقت من الغضب . عابث كلب وغد . هكذا يرد إلى نقطة البدء ودون بادرة أمل . وذهب إلى بقالة الحرية بكلوت بك فاشترى زجاجة كونياك وأعد له الرجل عشاء سمك . يوم عابث ويأس فلا أقل من أن يختم بسهرة مستهترة . وشرب بسرعة ودون أدنى اهتمام بالنقود التى تنفق . كأيام النبى دانيال . عندما قالت له الدنيا جميلة وأنت زهرتها . وهواء الإسكندرية المعربد المليئ بالفتن . أما هذه المدينة فلا يلقى فيها إلا

العناء. وكل ساعة تمر تقربه من النهاية المخيفة. وماذا بعد الانتظار والجرى وراء المجهول فى الظلام؟ وإذا خطر له أن يمتهن مهنة أمه فسيكون هزءة رجال الليل بالإسكندرية. واللكمة التى كانت تؤدبهم تنقلب راحة مبسوطة لخدمتهم‌لله. الجريمة دون ذلك يا أوغاد. لعل عابث التليفون واحد منكم فالويل لكم. وامرأة الفندق متعة يرغب فيها منذ عهد الأنفوشى وإلهام عبير طيب ولكن ما قيمة أى شىء قبل العثور على الأب؟ وتبسم بالنشوة رغم رائحة السمك. ومضى يسير تحت البواكى المقطبة. وجن إلى الرقص فى الكنار الليلى، والشوارع السنجابية المغسولة بماء المطر. والهواء المنبعث من الهدير الذى يغطى الأجساد بغلالة سمراء. ومس دمه جنون حيوانى كليلة المطاردة. وأمه كانت تدخن النارجيلة وتحكم الرجال. وعندما تجلس لمناقشته تجلس كملكة. وقالت له افعل ما تشاء ولكن لا تسرف فلا عدو لنا إلا الفقر. وقالت له اعشق كل يوم امرأة ولكن لا تجعل لإحداهن من سلطان عليك. وهام على وجهه فى الليل كالثور. وفى ملهى الكنار تعبث الأيدى تحت الموائد عبثا فاضحا. ولكن أين سيد سيد الرحيمى؟ وهتف بصوته الملئ «يا رحيمى» ثم راح يدندن بالأغنية الإسكندرانية «ما تبطل الشقاوة وتعالى عندنا». وبحكم الكونياك والسمك والهم جرد الزوجة من ثيابها وعبث بها بوحشية. ورجع إلى الفندق عند منتصف الليل فوجده غارقا فى النوم. ودخن سيجارة فى حجرته الأثرية ثم نام. واستيقظ. انتبه إلى أنه استيقظ على صوت وفتح عينيه. ثمة ظلمة عميقة والنافذة لم تفضح بأى نور. ثم يسمع نقرا خفيفا متقطعا على الباب. جلس وهو يرهف

السمع فعاوده النقر الخفيف الحذر . مد يده إلى مفتاح الكهرباء فأضاء المصباح العارى ثم مضى إلى الباب وفتحه بخفة . وما إن تحركت الضلفة عن فرجة حتى مرق منها شخص ثم رد الباب وراءه بسرعة . اشتعل يقظة وهو يحملق فيها ثم غمغم بذهول نشوان :

ـ أنت؟ !

نظرت حولها بحركة تمثيلية مازحة كأنما فوجئت بخطأ لم يجر على البال وتمتمت :

ـ أين أنا؟ . . أخطأت المكان؟

وحبكت الروب حول صدرها نصف العارى وعضت على شفتيها لتد ابتسامة فجذبها إلى صدره، إلى بيجامته المبعثرة وشعره المنكوش، وضمها إليه بقوة الصبر المعذب الطويل :

ـ أما أنا فإنى أنتظر مائة عام!

واتجها ملتصفين نحو السرير، وفى الطريق أطفأ النور .

ـ ألم تصادفك متاعب؟

ـ كلا . .

هى أدرى بأمرها وهو لا يهمه شىء . ورفع شفتيه عن ثغرها لحظة ليسألها :

ـ لم أعرف اسمك؟

ـ كريمة . .

فهمس فى أذنها من خلال أنفاس حارة :

ـ جدا!

إذن فأنت من النوع المقتحم! . . لم أفطن إلى طبعك بسبب دهائك الجميل . وفى الوقت المناسب لا يردك شىء عما تريدين . ما أحلى الحب فى الظلام . وتحقق حلم الجنون فى دوامة من الذهول . وانصهر التأمل فى وقدة طاغية ، وسبحت موجة من النار فى الظلمة الدامسة . واستحكمت لحظات النسيان المطلق فالتهمت الماضى والحاضر والمستقبل .

ـ قلت إنك أكثر من كريمة!

ـ وأنت؟!

وتسللت إلى أنفه رائحة خفيفة ولكنها مثيرة جمة الذكريات . وتوقع أن يسمع هدير البحر . حتى تواصل تردد الأنفاس كصدى رنين الأوتار بعد توقف العزف . ورأى الظلمة مرة أخرى . سواء فتح عينيه استطلاعا أم أغمضهما شبعا وارتياحا . وقال بصوت منغوم :

ـ فى الدنيا أشياء تستحق عليها التهنئة حقا .

ـ سيجارة من فضلك .

أشعل لها سيجارة وهو يقول :

ـ ظننتك غير مدخنة . .

ـ نادرا جدا ما أدخن!

وترك العود يعكس على جسدها ضوءة ، ولكنها نفخته فساد الظلام وانتشرت رائحة فسفورية خفيفة .

ـ لم ألمس فيك طوال الأيام الماضية إلا المعاندة!

ـ ولا المعاندة! أنا لا أبدى شيئا!

ـ أما أنا فصارحتك بكل شىء من أول يوم!

فضحكت بانتصار :

ـ الإسكندرية؟!

ـ كلا ، لا أقصد هذا ولكننى قلت هذا هو رجلى!

ـ والإسكندرية؟

ـ أنت تختلق حكايات لا أصل لها .

ـ حقا؟

ـ ولم أكذب عليك؟

ـ عجيب أن يخلق مثلك مرتين!

ـ يجب ألا يسرقنا الوقت حتى لا تحدث حوادث!

ـ كيف أمكنك المجىء؟

ـ أخذ المنوم فنام ، متاعبه كلها تتجمع عند النوم .

ـ ولكنك خيبت ظنى ، طالما قلت لنفسى إذا كانت هى فتاة

الإسكندرية فقد يعنى هذا أننى سأوفق فى البحث . .

ـ تعنى أباك؟

ـ نعم . .

ـ ما حكايتك بالضبط؟

ـ نشأت وأنا أظن أبى ميتا ثم أخبرنى ثقة بأنه حى، هذه هى الحكاية باختصار .

ـ لعلك تبحث عن المال؟

ـ ولكنه ليس كل شىء، الذى يهمنى الآن أكثر من سواه أن أسمع منك أنك ستجيئين كل ليلة؟

ـ كلما وجدت فرصة .

فقبلها قبلة طويلة هادئة فقالت بشقاوة :

ـ كلما راق لى ذلك!

فتشمم عبير صدرها بامتنان وقال بتوسل :

ـ لا تنكرى الإسكندرية!

ـ أنت مجنون بخيال، واحذر أن تكون كذلك فى حكاية أبيك؟

فقال بوجوم :

ـ أود لو كان ذلك كذلك لأريح نفسى . .

ـ همك أكبر مما ظننت!

ـ نعم ، ولكن همى الجديد، بعد هذه الليلة، أن أبقى هنا أكبر مدة ممكنة.

ـ وماذا يمنعك من ذلك؟

بعد تفكير:

ـ إذا نفدت نقودى قبل العثور على أبى وجب على الرجوع إلى الإسكندرية.

ـ ومتى تعود إلينا فى تلك الحال؟

ـ على أن أبحث عن عمل هناك.

فشبكت أصابع يدها فى أصابع يده وقال:

ـ لا . .

ارتفع انتباهه إلى القمة فعادت تسأله:

ـ ولم لا تبحث عنه هنا؟

ـ غير ممكن!

ـ كلك ألغاز، ولكنى أخبرك بأن النقود ليست مشكلة.

خفق قلبه وقال مقتبسا من جو الكنار الليلى:

ـ الظاهر أنك مليونيرة.

فقال فى مباهاة:

ـ هذا الفندق . . والمال . . كل شيء باسمى أنا!

ـ والرجل موظف عندك؟

ـ كلا هو المتصرف فى ماله طالما أنه على قيد الحياة .

ـ على أى حال هذا لا يعنى شيئا بالنسبة لى!

وخجل من مكره الساذج رغم الظلام فقالت :

ـ لندع الله أن يهديك إلى أبيك فهو حل أيسر من غيره .

ـ هذا ضرورى ولو أننى لن أهتم منذ الساعة بشيء سوى انتظارك .

وأحاطها بذراعه ولكنها تزحزحت إلى حافة السرير قائلة :

ـ اقترب الفجر ووجب الذهاب . .

ورجع إلى سريره بعد أن أغلق الباب وعناقها لاصق به كالعبير ، واستلقى فى ارتياح عميق فسرعان ما زحف عليه التخدير . وقال إنه يشعر لأول مرة بأنه يحتمل أن يستغنى عن أبيه ، ولكن عندما لوح له الساوى بسماعة التليفون هرع إليه كالريح ثم هتف بجزع :

ـ آلو؟

وإذا بصوت جاد يسأل :

ـ صابر سيد صاحب الإعلان؟

ـ نعم أنا هو!